النموذج الصهيوني لادارة الصراع السكاني

محمد خالد الأزهري

في إطار الصراعات الأنسانية، وحين يكون منهج التعامل بين الخصوم هو منهج المواجهة والتصدي، يسعى كل طرف مشارك الى استنفار قواه بأشكالها كافة. ويبدأ ذلك برصد مصادر القوة، وتبويبها، ومعرفة حدودها الحالية، والمستقبلة، مروراً بعملية تدعيم هذه المصادر، وتعبئتها، ثمّ ينتهي الأمر بمحاولة التوظيف الأمثل لعناصر القوة، بغرض تحقيق أقصى عائد منها في مجرى المواجهة. وفي الوقت عينه، تضع أطراف الصراع في حسبانها أن للخصم موارده ومصادر قوته التي ينبغي الأحتياط لها، في الحاضر والمستقبل، والعمل على تحطيمها، أو تحجيمها، أو إخراجها من جعبة الخصم وتعطيل فعاليتها وشلّها، أو تحييدها. والهدف النهائي لهذه العملية المزدوجة ـ أي تعظيم مصادر القوة الذاتية وإضعاف مصادر قوة الخصم وأستنزافها ـ هو كسر ارادة الخصم وكسب الصراع.

من هذا المنطلق، يمكن الأقتراب من البعد السكاني في الصراع الاسرائيلي ـ العربي، باعتبار العنصر السكاني (البشري) أحد مصادر القوة، التي يهدف الكيان الصهيوني الى تعظيمها بالنسبة اليه، وتعطيل فعاليتها في الجانب العربي بعامة، والفلسطيني بخاصة؛ وذلك بالقدر ذاته الذي يمكن القول عنده ان الجانب العربي ـ الفلسطيني يهدف، بدوره، الى تضييق مصدر القوة السكانية في الكيان الصهيوني، وصولاً الى محاولة تجفيف هذا المصدر، بل وإمكانية إغراق القوة السكانية الصهيونية في المحيط البشري الفلسطيني، أو العربي. وبعبارات أخرى، فانه، بالنظر الى اختلال التوازن السكاني في الصراع الدائر بين الغزوة الصهيونية الاستيطانية والمنطقة العربية، لصالح الجانب العربي عموماً ـ وهو ما توحي به النظرة الأولى ـ يمكن الافتراض ان أقصى ما تهدف اليه اسرائيل هو منع الجانب العربي عن التوظيف الأمثل لقواه البشرية في مواجهتها. هذا بينما قد تتوفر للجانب العربي، في حال اتقان توظيف مصدر القوة البشرية في الصراع، القدرة على تطويق الوجود الصهيوني في فلسطين، وتحويل هذا الوجود، في المستقبل البعيد نسبياً، الى نقطة صغيرة لا تكاد تظهر على الخارطة البشرية للمنطقة العربية، من الناحية الكمّية؛ وقد يندثر هذا الوجود ويتمّ هضمه حضارياً، من الناحية الكيفية. وفي تصوّر أقرب الى الواقع، هناك فهم أضيق يخص الطرف الفلسطيني وحده في الصراع، ويحاور هذا الفهم حول إمكان استغلال الاختلال في معدّل النمو السكاني ـ القائم بالفعل ـ بين العناصر البشرية الصهيونية الاستيطانية وبين العناصر العربية الفلسطينية في فلسطين التاريخية، بحيث يأتي زمن تضمحل فيه الأكثرية الاسرائيلية الصهيونية، حتى تنتهي أقلية. عندئذٍ، ومع ثبات العوامل الأخرى في الصراع، سوف يواجه الكيان الصهيوني بخيارات محدّدة، جميعها في غير صالحه.